



تشرين الاول ١٩٣٢

السنه الثلاثون

الطوقوس والطوائف

في

الكنائس الشرقية

للأبوين يوسف مونيحان وفردنان توتل اليسوعيين

١

نوطه

أخذ مجمع الكنائس الشرقية المقدس يعني بتدوين الحق القانوني للكنائس للطوائف الشرقية وطوقوسنا ، فأنجمت جهود الكنبه والدارسين الى تلك الناحية من اللرم الدينية ، واشتندت ، في المدارس الاكاديمية ، عزائم الاساتذة والطلاب في مواصلة البحث عن هذا الموضوع المطير . وان ادارة الدروس الاكاديمية في كلية القديس يوسف مهتمه ، منذ سنين عديدة ، اهتماماً خاصاً بالمسائل المتصلة بحياة الكنائس الشرقية ، المساعدة على حسن النظم ، وعلى التفارب بين المسيحيين الشرقيين والكرسي الرسولي ؛ افتتحت في سبيلها اللاموتي متهجاً واسعاً لدرس الشؤون الطائفة والطقسية .

من الدروس التي القاها الاب يوسف مونيحان اليسوعي ، ابتداء اللاهوت الادي والحق القانوني في اكاديمية كلية القديس يوسف ، نتج كتاب طبع باللاتينية طبعه حجرية ،

بالمحبوب ملدسي محض ، وهو آلة للبحث ، ومورد لذاكرة التلاميذ في مراجعة الدروس التي نسخوها ، وفيه من النافع والفوائد ما يبرز وجوده في اللغات الاجنبية فضلاً عن العربية . وهو حقيق بان يتداوله لا طلاب المدارس فحسب بل كل كاهن متتور وخطافي مثقف ، فيور على معرفة شؤون الطوائف واصولها . فانتظنا منه ما رأيناه ، بالاتفاق مع المؤلف ، صالحاً للنشر ، وعربياً ثمرياً مخالفاً بعض المخالفة اصله اللاتيني ، اذ جردناه ، ما امكن ، من صيغته المدرسية المحضة والبناءة الحلة التي لا بد منها لبروق اعين القراء ، متوسمين ببعض البنود الواجب شرحها لتثريها من العامة ، موجزين ببعض الشروحات المستفاضة ، وغرضها جدي لا قهري . مقدمين في اوائل الكتاب ما اخره فيه المؤلف ، مؤخرين فيه ما قدمه ، طيفاً لما رأيناه موافقاً لحسن التنسيق ورواق الانشاء .

على ان فكرة المؤلف الابتكرة لم نتبر ، ولم يظهر منها ، في الطبعة العربية ، الا ما اطلع عليه حضرة الاب مورغان بذاته ورآه موافقاً صميم آرائه .
هذا تنبيه لا بد منه ليكون القارئ على بصيرة من صحة نسبة المقال الى صاحبي التوقيع .
فيود كلل ذي حق حقه .
الاب فردينان تول اليسوعي

اذا ما قابلنا بين حالة المسيحيين كما كانوا على عهد الرسل ، وهم روح واحدة وقاب واحد مشتركون بقسمة الخبز ، وحالتهم كما هم الآن في العالم موزعون بين طوائف وملل شرقاً وغرباً ، لا يسفنا الا السؤال كيف نشأت تلك التفرعات حتى ضمن الكنائس الكاثوليكية المتحدة مع الحبر الروماني بايمان واحد ؟ وقد ينال سؤالننا هذا ، فيما يخص الكنائس الشرقية ، اهمية عظيمة ، لان امر الطائفية في بلادنا انس من اساسات الحياة الاجتماعية فضلاً عن الدينية ؛ والطائفية تسود في الانتخابات وفي توزيع الوظائف العمومية ، ولها حقوقها المرعية اليوم في جملة حقوق الاقليات في جمية الامم كما كانت مرعية الامس على عهد بني عمان . ورب قاعدة من قواعد الشرق كحلب وبيروت ومصر ضمت في حدودها الكنائس جماعات من المؤمنين الكاثوليكين الذين يحق لهم ان يتناولوا جسد الرب من بائدة خلاصية واحدة ، وهم مع ذلك يتسرون كل جماعة الى رئيسها ، ولها كنيستها ، وكهنتها ، ولقتها وتقاليدها وحقوقها الدامة والشخصية ، لانها هي وحدة الايمان بتنوع الطقوس والطوائف . ولا حاجة الى تعداد تلك الطقوس والطوائف ، والقارئ اللبيب يعرفها . وسوف يأتي الكلام عليها مفصلاً ، وهي كلها تتسي الى اصل واحد وهو الدين

الذي آسسه السيد المسيح على الأرض.

ولا يخفى أن هذا الدين كان واحداً في عقائده وفي طقسه . ان امر العقائد لا يدخل في موضوع كلامنا الآن ، وما همنا الا الطقوس كيف تفرعت من اصلها ونشأت وتمددت ، وقالت ما قالته من الالهية حتى صار الاحبار الاعظمون يتنون الشرائع في سبيل حفظها وصيانتها واصبح من واجب الرعاة والمؤمنين ان يدرسوا تقاليدنا ويلكوا بموجبها ؟

ان البحث لا يوفي الموضوع حقه الا باستقصائه من اصله ، والسؤال عن معنى كلمة الطقس والطائفة . وهذا السؤال يؤذي الجواب عليه فرصة لمباحث نظرية ينتج منها فوائد لا تاريخية فقط ، تلبية للطلوب ، ولكن اديية وعملية ايضاً ، لانها تقتر لنا خطة الكتابة في معالجة شؤون الطقوس وقاعدنا على ان نسلك تلك الخطة بإرشادها من غير افراط ولا تفريط في التمسك بالمباني والعمل بها .

ما معنى لفظة الطقس في اصلها اللاتيني ؟ - كيف تطورت وراذفت معنى الطائفة او الكنيسة في بلاد الشرق ؟ - كيف استتات كل كنيسة او طائفة عن غيرها حتى صارت قوميات عديدة ضمن منطقة واحدة ؟
ان الجواب على سؤالاتنا الثلاثة هذه ، يكون موضوعاً لمقالنا اليوم .

١

الطقس ومعناه وتحدده

من يؤذي لنا معنى الطقس بعرفه الكنائسي الكامل ؟ اذا عمدنا الى معجم اللغة العربية قرأنا التحديد التالي : الطقس معناه الطريقة ، وغلب على الطريقة الدينية ، وهو لفظة نضراية دخيلة .

وهذا التحديد لا يروي غليلاً لانه لا يعيز بين طريقة وطريقة . ولا بد من البحث على معنى لفظة «طقس» في عرف النصارى واستمالها الشائع بينهم ، وعلى الاخص في آثار اجارهم ومعلمهم وذلك في حياة الكنيسة ، وفي وثائق الكرسي الرسولي ، ورسائل البطاركة .

مسمى الطقس في حياة الكنيسة

فان انه.نا النظر في حياة الكنيسة رأينا فيها رتباً مقدسة كرتبة العباد ،
وسمنا فيها اقوالاً ، وشاهدنا فيها اعمالاً و اشارات ترافق الرتب المذكورة ،
والمسيحيون يسمونها طقساً .

واذا سرحنا راند البصر في كل كنيسة من الكنائس وجدنا فيها رتباً
مقدسة خاصة بها ، هي عبارة عن الرسوم الموضوعة للقيام يواجب العبادة
المعمومية . وهذه ايضاً يدعونها المسيحيون طقساً : هناك ، مثلاً ، الطقس الليوني ،
نسبةً الى مدينة ليون في فرنسا ؛ والطقس الميلاتي ، نسبةً الى ميلانو في ايطالية .
واذا شملنا بنظرنا كنائس عديدة وقابلنا بين رتبها او طقوسها ظهر لنا الطقس
بظاهرة جديدة . فانه تارة يفيد الرتب التي لا تصطبغ بصبغة نظامية متعلقة
بالاحوال الشخصية المدنية ، كالطقس الليوني المذكور آنفاً ، والطقس المسترب
(Mozarabique) المنسوب الى البلاد الاسبانية التي عاش مسيحيوها تحت
الحكم العربي في القرون الوسطى ؛ وطوراً يفيد الرتب او ظاهرات العبادة
المعمومية المتعلقة بنظام ما كنائسي موثر في احوال الاشخاص المتمين اليه ،
كالطقس الماروني او الارمني .

وان المقابلة بين الكنائس اللاتينية والشرقية خاصة تكشف لنا على طقوس
لا تختلف بعضها عن بعض الا في الرتب المقدسة ، وتبقى موافقة بعضها بعضاً في
الانظمة والفرائض كالطقس الليوني والطقس الميلاتي في الكنيسة اللاتينية ؛
وترينا دقراً تختلف فيها الانظمة والفرائض كما هي الحالة في الطقس اليوناني
او البيزنطي والطقس الارمني والطقس القبطي ، في الكنيسة الشرقية .

فان شئنا ان نطابق على الطقس تحديداً شاملاً معانيه بتمامها قلنا ، وكان قولنا
التحديد العلمي الواجب الاصطلاح عليه بين اللاهوتيين : ان الطقس هو ترتيب
الرتب (او الليتورجية) المقدسة المرتبط بنظام .

فالليتورجية ، او فرائض الخدمة والعبادة الرسمية في بيمة الله هي كالعنصر
الاولي والاصلي المكون منه الطقس ؛ اما النظام المرتبط بها ، فهو لاحق لها ،

وهو كمنصرها الثانوي . ومن ثم يبدو حالاً الفرق بين المنصرين ، وكل واحد في مرتبة غير مرتبة صاحبه ، ولكل واحد خواص غير خواص الثاني . فالرتب يمر جداً تغييرها ؛ اما النظام ، وان يكن غير التغيير ، فهو اقل منمة من العاقس دون التغيير ، اذا ما حست الحاجة الى ذلك في ظروف ازمان والمكان .

معنى الطقس في تسليم الكرسي الرسولي

لم يبالغ الكرسي الرسولي المسألة التي نحن في صدها مباشرة وخاصة . لكنه وضع اركان التعليم الكاثوليكي فيها ، لما تكلم عليها عرضاً في مراسلاته مع الشرق .

في ٢٤ شباط سنة ١٨٧٠ وجه البابا بيوس التاسع رسالة الى السيد انطون يوسف تيانو ، القاصد الرسولي في القسطنطينية ، ليبلغها الى الكنيسة الارمنية الكاثوليكية : قال :

« يجب ان يُنبه الارمن وسائر ابناء الطوائف الشرقية الى الفرق العظم الموجود بين الرتب الكنائسية (rites) وبين انظمتها (discipline) ؛ لان الخلط في الامرين كثيراً ما يؤدي الى الاتباس والاضطراب في عقولهم وقلوبهم ، ويثير فيهم عواطف التضجر والتذمر على الكرسي الرسولي . وسرعان ما يقتحم اعداء الكرسي الرسولي كل فرصة سانحة لتذكية نار تلك العواطف ووضع الموائع دون ارادة الاب الاقدس وتحقيق امانه الخلاصية في سيل الكنائس الشرقية .

« اننا ، مع كل الذين سبقونا على هذا الكرسي الرسولي ، اعلنا ارادتنا بوجوب المحافظة على الطقوس الشرقية ، في كل ما ليس فيها مناقضاً للايمان وللوحدة الكاثوليكية او للآداب الكنائسية ولياقتها . لكن تلك المحافظة لا تحمول دون ان يتم حسن التنسيق في نص القوانين الكنائسية النظامية ، لكي تكون موحدة في اهم ابوابها ، عسى ان تسترد قوامها السابق ، بعد ما تكون قد ترعرعت وضاءت علي مدى الايام » .

معنى الطقس في اقوال الاجبار الشرقيين

ان اقوال الاجبار الشرقيين على اختلاف لغاتهم وتنوع الرسائل التي ارسلوها الى رومة في شأن الطقس لما يأتي ممدداً لقولنا السابق في معنى الطقس وتحديدته ، والتمييز بين الرتب والانظمة

في ١٨ مارس ١٨٧٠ ارسل الاساقفة الروميون الى المجمع الكاثوليكي ممرضاً غرضه الشئون الطقسية " قسموا فيه النظام اربعة اقسام : ١ نظاماً طقسياً ؛ ٢ نظاماً قانونياً شاملاً الاكليروس والملاهيين معاً ؛ ٣ نظاماً خاصاً ببعض الاحوال ؛ ٤ نظاماً عادياً او مألوفاً .

١ فالنظام الطقسي ، ووضعه الاحتفال بالقداس الالهي واقامة الصلاة الروسية ، ومنح الاسرار وساير الرتب الممهودة في الكنيسة اليونانية . قالوا فيه : انه يجب ان لا يطرأ عليه تفسير لانه يرتق الى عهد الرسل وتقاليد الآباء ، واستشهدوا على قولهم كلام القديس باسيليوس .

٢ والنظام القانوني ، او الموضوع للاكليروس والملاهيين معاً ، هداية لهم في طريق الصلاح ؛ قالوا فيه : ان بنوده ، اذا حفظت ، ادت بحفاظتها الى ذرى القداسة ، فاما من حاجة الى التمييز فيها .

٣ والنظام الخاص ببعض الاحوال ، وموضوعه النقائص العارضة في بعض الاحوال الرهبانية او الكنائسية ضمن مقاطعات محدودة ولاشخاص ممتنين ؛ قالوا فيه : ان كان ولا بد من ادخال التفسير فيه ، فيكفي ان ينال التفسير البقعة من الارض المذكورة ، او الاشخاص المذكورين ، بواسطة مجمع محلي .

٤ والنظام المؤلف اي المدون ، لا في الكتب ولكن في الموائد الجارية بين المؤمنين ، قالوا فيه : انه من الواجب ان يتبع فيه مثال الكنيسة الرومانية ، فتدعى الظروف الجديدة الغير المألوفة في الموائد القديمة والجديرة بان تنب خواطر اوليا . الامر الى ضرورة الاصلاح والتجديد . وخذ لك في ذلك مثلاً نظام الدواوين القانونية ، والمدارس الاكليريكية وغيرها ، والمستشفيات الخ الخ .

وختسوا كلامهم مبررين عن رغائبهم بالأى يحدث تغير في الطقس ولا في نظام الكنيسة اليونانية ، لكي لا يصيروا هدفاً لاعتراضات الاخوة المنفصلين وانتقاداتهم .

وان كلام الاساقفة الروميين يبين الرابطة بين الطقس في معناه الاصيل ، وبين عنصر من عناصر النظام الممكن ان تتغير من دون ان يتغير الطقس في صميمه ، ومن امثال ذلك التغيرات الممكن احداثها في نظام الامتيازات والوظائف والرتب الخ . . . وهي محفوظة في بعض الكنائس ومهمله في غيرها . ولهذا الامر ايضاً تشهد اقوال بطاركتنا الشرقيين ، ولا شك ان القارى يشاق الى سماعهم ، ولنا في الاعداد افادة .

اليك ما كتبه البطريرك غريغوريوس يوسف ، السيد المذكور ، في ١٢ ايار ١٨٦٦ الى الكردينال رئيس مجمع انتشار الايمان ، وقد عربنا كلامه عن الابطالية اخذاً عن مجموعة مانبي (٤٩ : ٢٠٠) .

« ان الكنيسة الشرقية في حاجة الى الاصلاح وذلك من وجوه عدة اهمها البنود التالية : قلة نظام الرهبانيات ؛ سلوك المرسلين اللاتين بالطوائف الشرقية طريقة تمس بحقوقها ؛ الجهول في السواد الاعظم من الاكليروس ؛ عدم وجود حق قانوني خاص ومناسب لموائد كل طائفة من الطوائف لان التوانين القديمة مهمله ملغاة وممارستها غير ممكنة والحكم في الكنيسة الشرقية اصبح قيد الاستبداد ، والقانون صار هدفاً لمخالفات شتى .

وان هذه النقائص متغلطة في جيم الطائفة وفي حياتها وماسة بالنظام ، فلا بد من اجراء بعض التغيرات في الاحوال الحاضرة بلوغ المآرب من الاصلاحات المنشودة .

فكلام البطريرك غريغوريوس يوسف مصداق اذن للقول السابق المحيّر بين الطقس والنظام .

وبالمنى ذاته تكلم السيد المذكور اغناطيوس فيلبس عركوس ، البطريرك السرياني الانطاكي ، في رسالته الى الكردينال ذاته (٢٦ آب ١٨٦٦) . وقد وصف الاضرار اللاحقة برعاياه من جراء الدعاية البروتستانية وغيرها ، وسأل

التلج عليها بالسلاح ذاته الذي هاجمت به القطيع المسيحي، اعني بطبع الكتب الدينية، وفتح المدارس والمستشفيات، وغير ذلك مما لا يمكن احداثه من غير احداث تغيير في النظام الكنائسي الحالي.

وكذلك السيد انطونيوس حدون، جاثليق الارمن، في رسالته الى الكردينال المؤرخة من القسطنطينية في ٢٥ آذار ١٨٦٦. فقد كشف على امراض النفوس الروحية: روح الماسونية، الاضاليل المصرية الخ. ثم دعا الى معالجتها بالوسائل المستحدثة في التعليم وفي الانظمة الكنائسية. ذلك ما دل على اعتقاده امكان ادخال بعض التغييرات في النظام.

وان الفرق الموجود بين الطقس والنظام يتن من طبيعة الامر ومن غاية وجودهما في الكنيسة. تلك الغاية انا هي خلاص النفوس. فان كان النظام غير قابل للتغيير البتة، ويقاوزه واجب كبقا. الطقس بمنه الاصيل، تمذر تدير الكنيسة على رؤسائها وعلى من عهد اليهم بامورها الروحية والزمنية طبقاً للاحتياجات المصرية ولتقلب الاحوال في الزمان والمكان. وقد يصح غالباً في الكنائس الشرقية عامة، الكلام الذي قاله البطريرك غريغوريوس يوسف على الكنيسة الملكية خاصة، وعدم وجود حق قانوني تقيد به. فان كان احداث التجدد في النظام غير ممكن، فكيف الوصول الى وضع القانون؟ وقد علمت الخبرة ان عدم مجارة الظروف في احكامها، عند حدوث الحوادث الجديدة، يؤدي الى اضرار جسيمة. والشاهد في ذلك كثرة الدعاوي الناتج عنها فسخ الزواج، وزيادة حوادث مخالفة شرائع الصوم والقطاع وحفظ الاعياد، والتصرف المطلق، في رمص الاحيان، بالسلطة الكنائسية من غير قيد ولا شرط.

عذا من امر الطقس وممازبه وتحديداته والنتائج الصادرة من ذلك؛ على ان في بلادنا طقوساً عديدة. فكيف نشأت؟

(لها بقية)

